معالجة النص القرآني لمشكلة التعصُّب الفكري

د. محمد حامد محمد باحميش

أستاذ الفقه وأصوله المساعد

بكلية العلوم الشرعية والقانونية

جامعة الوسطية الشرعية

للعلوم الإسلامية والإنسانية

Mo.bahamesh@gmail.com

©نُشر هذا البحث وفقًا لشروط الرخصة Attribution international (CC BY 4.0)، التي تسمح بنسخ البحث وتوزيعه ونقله بأي شكل من الأشكال، كما تسمح بتكييف البحث أو تحويله أو الإضافة إليه لأي غرض كان، بما في ذلك الأغراض التجارية، شريطة نسبة العمل إلى صاحبه مع بيان أي تعديلات أجريت عليه.

للاقتباس: باحميش، محمد حامد، معالجة النص القرآني لمشكلة التعصب الفكري، مجلة جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية، عدد خاص للمؤتمر القرآني الدولي الثالث المجلد (1)، سبتمبر 2025: 363-403.

DOI: https://doi.org/10.61821/3rdconfv1.0201

الملخص:

إنَّ مما ابتُليت به الأمة الإسلامية قديمًا وحديثًا ظاهرة التعصُّب للرأي، والتي عصفت في مجتمعاتنا بالأخضر واليابس، لا سيما في الوقت المعاصر؛ فاختلف المسلمون بسببها وتفرقوا عن سبيل الله إلى مجموعات متنازعة متناحرة، واعتقد كل حاملِ رأيٍ أنَّ ما عليه هو الصواب الذي لا يحتمل الخطأ، وما عليه غيره هو الخطأ الذي لا يحتمل الصواب، فأثَّر هذا التعصُّب الفكري على كيان المجتمعات العربية والإسلامية عمومًا، وعلى بلدنا خصوصًا، وقد حذرنا القرآن الكريم من الانجراف لهذا الخُلق.

ويُقصد بالتعصُّب الفكري: الانغلاق على التفكير بصفة أحادية، وإلغاء الرأي الآخر، ورفض الاعتراف به وتقبله واحترامه أو الحوار معه، وهو ما ينافي المبدأ الذي يُقر بالتنوع وتعدد الآراء، وقد عالج القرآن الكريم هذه المشكلة بطرق كثيرة متعددة، كانت جميعها سلمية وقائية، تحترم حقوق الإنسان بالدرجة الأولى. والبحث هنا يسلط الضوء على مفهوم التعصُّب، وصوره الواردة في القرآن الكريم، وأسبابه وآثاره على الأفراد والمجتمعات، مع بيان كيفية معالجة القرآن لهذه الظاهرة الخطيرة.

الكلمات المفتاحية: التعصُّب، التطرف، الفكر، الخطر، المعالجات، القرآن الكريم.

Addressing the Qur'anic Text Toward the Problem of Intellectual Fanaticism

Dr. Mohammed Hamid Mohammed Bahamish
Assistant Professor of Jurisprudence and its Principles
College of Sharia and Legal Sciences
University of Moderation
For Islamic and Human Sciences

©This article is an open access article distributed under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY) license.

Citation: Bahamish, Mohammed Hamid, Addressing the Qur'anic Text Toward the Problem of Intellectual Fanaticism, Journal of the University of Holy Quran and Islamic Sciences, Special Issue of the third International Qur'anic Conference, Volume (1)، September 2025:363-403.
DOI: https://doi.org/10.61821/3rdconfv1.0201.

Abstract:

Among the trials that have afflicted the Islamic nation—both in the past and present—is the phenomenon of fanaticism toward one's own opinion. This has ravaged our societies, consuming the fruitful and the barren alike, especially in modern times. Muslims have become divided as a result, splintering from the path of Allah into opposing and conflicting groups. Each person holding an opinion believes with certainty that their view is the absolute truth, allowing no room for error, while considering the views of others as completely mistaken with no possibility of being correct. This intellectual intolerance has deeply affected the fabric of Arab and Islamic societies in general—and our country in particular. Holy Qur'an has warned us against falling into such behavior.

Intellectual fanaticism refers to the closed-mindedness of thinking in a unilateral way: rejecting, denying, and refusing to acknowledge, accept, or respect other viewpoints—or even engage in dialogue with them. This stands in contrast to the principle that embraces diversity and the multiplicity of opinions. Qur'an addressed this issue through numerous peaceful and preventative approaches, all of which prioritize human rights. This research highlights the concept of fanaticism, its manifestations as mentioned in Qur'an, its causes and consequences on individuals and societies, and how Qur'an proposes to address this dangerous phenomenon.

Keywords: Fanaticism, extremism, ideology, danger, treatments, the Holy Quran.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدِّين، أما بعد: فإنه بتوفيق الله ومعونته تشرفتُ بكتابة هذا البحث، الموسوم بـ: (معالجة النص القرآني لمشكلة التعصُّب الفكري)، سائلًا المولى تعالى أن يكون هذا الجهد خالصًا لوجهه الكريم، ومساهمًا في معالجة بعض المشكلات في واقعنا المعاصر.

أهمية البحث:

تتجلى أهمية الموضوع من متعلقه، فقضية التعصُّب الفكري، بحاجة كبيرة إلى العناية والاهتمام، من خلال البحث حول أسبابه وصوره ونتائجه وطرق معالجته، وفقًا لهدي القرآن الكريم وتوجيهه.

أهداف البحث:

1. التعريف بالتعصُّب الفكري لغة واصطلاحًا.
2. الوقوف على نصوص القرآن الكريم حول أسباب التعصُّب الفكري، وأهم مظاهره، وأبرز أسبابه، والنتائج المترتبة عليه.
3. إبراز دور القرآن الكريم في معالجة هذا السلوك، وذلك من خلال استقراء النصوص الواردة فيه، مع بيان دلالتها.
4. المساهمة في تقويم السلوك المنحرف لدى بعض المسلمين، وربطهم بهدي القرآن.

الدراسات السابقة:

بعد البحث والمطالعة وجدتُ عددًا من الأبحاث والدراسات العلمية تناولت بعض زوايا هذا الموضوع، إلا أنها لم تقصد ما قصدته، ولعلَّ من أبرزها ما يلي:

1. التعصُّب للرأي وأثره على المجتمع (نماذج من التاريخ الإسلامي)، ناظم ناجي حماد الدليمي، مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع، العدد (10)، للعام 2016م.
2. الإرهاب الفكري، الأسباب الآثار العلاج، دراسة في ضوء القرآن الكريم، عبد الصبور أحمد محمود، المجلة الدولية للدراسات الإسلامية المتخصصة، العدد (1) للعام 2019م.

منهج البحث:

يعتمد هذا البحث على المنهج الوصفي، والمنهج الاستقرائي، وأيضًا المنهج التحليلي.

خطة البحث:

اقتضت طبيعة البحث تقسيمه إلى مبحثين، وتحتهما مطالب، وخاتمة، كالآتي:

المبحث الأول: معنى التعصُّب الفكري وصوره في القرآن الكريم وأسباب ظهوره: وفيه ثلاثة مطالب:

- المطلب الأول: معنى التعصُّب الفكري في اللغة والاصطلاح.
- المطلب الثاني: صور التعصُّب الفكري في القرآن الكريم.
- المطلب الثالث: أسباب التعصُّب الفكري ونتائجه.

المبحث الثاني: معالجة النصوص القرآنية لمشكلة التعصُّب الفكري، وفيه مطلبان:

- المطلب الأول: ذمُّ التعصُّب الفكري في القرآن الكريم.
- المطلب الثاني: طرق معالجة النصوص القرآنية لمشكلة التعصُّب الفكري.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج، وأهم التوصيات.

المبحث الأول

معنى التعصُّب الفكري وصوره في القرآن الكريم وأسباب ظهوره

المطلب الأول: معنى التعصُّب الفكري في اللغة والاصطلاح:

التعصُّب لغة: مأخوذ من العصبية، والعصبية: أن يدعو الرجل إلى نصرة عصبته، والتألُّب معهم على من يناويهم، ظالمين كانوا أو مظلومين، وقيل: العصبي هو الذي يغضب لعصبته، ويحامي عنهم، فالعصبية والتعصُّب: المحاماة والمدافعة [1]، وقيل: هو عدم قبول الحق عند ظهور دليله [2]. ويعرَّف التعصُّب اصطلاحًا: بأنه شيمة من شيم الضعف، وخُلة من خُلل الجهل، يُبتلى بها الأنسان فلا يرى حُسنًا إلا ما حسُن في رأيه، ولا صوابًا إلا ما ذهب إليه أو تعصَّب له [3]، وقيل: غلو في التعلق بشخص أو فكرة أو مبدأ أو عقيدة، بحيث لا يدع مكانًا للتسامح، وقد يؤدي إلى العنف والاستماتة [4]، وفي الاصطلاح الفقهي يعرَّف بأنه عدم قبول الحق عند ظهور الدليل؛ بناءً إلى الميل إلى جانب الهوى، يوجب ذلك التعصب خفة سفه، أي خفة عقل يكون للسفهاء [5].

والفكر لغة: إعمال العقل في المعلوم؛ للوصول إلى معرفة المجهول [6]، واصطلاحًا: قوة مطرقة للعلم إلى المعلوم، والتفكُّر: جولان تلك القوة بحسب نظر العقل، وذلك للإنسان دون الحيوان، ولا يقال إلا فيما يمكن أن يحصل له صورة في القلب، قال بعض الأدباء: الفكر

(1) ينظر: ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب،1/ 606. ومرتضى الزبيدي، محمد بن محمد، تاج العروس من جواهر القاموس، 3/ 381.

(2) ينظر: عبد الحميد، أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة، 2/ 1505. والتهانوي، محمد بن علي، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، 1/ 485.

(3) ينظر: العبده، محمد وعبد الحكيم، طارق، مقدمة في أسباب اختلاف المسلمين وتفرقهم، ص 79.

(4) ينظر: بدوي، أحمد زكي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، ص 154.

(5) ينظر: أمير بادشاه، الحنفي، محمد أمين، تيسير التحرير، 3/ 239.

(6) ينظر: قلعجي، محمد وقنيبي حامد، معجم لغة الفقهاء، 1/ 349. ومختار أحمد، معجم اللغة العربية المعاصرة، 2/ 1734.

مقلوب عن الفرك، لكن يستعمل الفكر في المعاني، وهو فرك الأمور وبحثها؛ طلبًا للوصول إلى حقيقتها [1]، وقيل: هو النظر في الأمر؛ ليقف الناظر على صحته أو بطلانه [2].

وقد عرف الشوكاني [3] التعصُّب الفكري بأن تجعل ما يصدر عن أحد العلماء من الرأي ويروى له من الاجتهاد حجة عليك وعلى سائر العباد، قال: "فإنك إن فعلت ذلك كنت قد جعلته شارِعًا لا متشرِّعًا، مكلِّفًا لا مكلَّفًا، وتعبدًا لا متعبدًا، وفي هذا من الخطر عليك والوبال لك ما قدمناه، فإنه وإن فضلك بنوع من أنواع العلم وفاق عليك بمدرك من مدارك الفهم فهو لم يخرج بذلك عن كونه محكومًا عليه متعبدًا بما أنت متعبَّد، فضلًا عن أن يرتفع عن هذه الدرجة إلى درجة يكون رأيه فيها حجة على العباد، واجتهاده لديها لازمًا لهم"، ثم قال: "فإذا تقرر لك هذا، وعلمت بما فيه من الضرر العظيم الذي يمحق بركة العلم، ويشوه وجهه، ويصيره بعد أن كان من العبادات التي لا تشبهها طاعة ولا تماثلها قربة معصية محضة وخطيئة خالصة، تبين لك نفع ما أرشد إليه من تحري الإيمان الذي من أعظم أركانه وأهم ما يحصله لك أن تكون منصفًا، لا متعصب في شيء من هذه الشريعة، فإنها وديعة الله عندك وأمانته لديك، فلا تخنها، وتمحق بركتها بالتعصُّب لعالم من علماء الإسلام، بل الواجب عليك أن تعترف له بالسبق، وتقر له بعلو الدرجة اللائقة به في العلم، معتقدًا أن ذلك الاجتهاد الذي اجتهده والاختيار الذي اختاره لنفسه بعد إحاطته بما لا بد منه، هو الذي لا يجب عليه غيره ولا يلزمه سواه" [4].

(1) ينظر: الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، 1/ 643.

(2) ينظر: أبو الحسن الأشعري، علي بن إسماعيل، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، 2/ 391.

(3) الشوكاني: محمد بن علي بن محمد، (1173-1250هـ=1760-1834م)، فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن، من أهل صنعاء. ولد بهجرة شوكان، من بلاد خولان، باليمن، ونشأ بصنعاء، وولي قضاءها سنة 1229م، ومات حاكمًا بها، من مؤلفاته: نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخبار، والبدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، وفتح القدير في التفسير، وغيرها كثير. ينظر: كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، (11/ 53).

(4) ينظر: الشوكاني، محمد بن علي، أدب الطلب ومنتهى الأدب، ص 32.

ومن ينظر إلى التعصُّب على أنه مخالفة الدليل لا شك أنه سيربط بينه وبين التمذهب، وهذا خطأ، ولذلك أصبح بعض الباحثين يعتقد أن ثمة ارتباط بين الأمرين، لذلك تجد أحدهم إذا أراد أن يقرر مذهبًا معينًا يضيف عبارة أنه ليس من المتعصبين له، فعند تقرير مفهوم التعصُّب الفكري يتبين أنه نوع من الانحياز، والدفاع عن مسألة تحت تأثير العواطف، كما يوصف بأنه وضع غير طبيعي، يتكون ويتراكم، فيتحكم في سلوك الإنسان كنوع من الانتقام وإشاعة الأذى للطرف المخالف، وهذا بخلاف التمذهب، فهو وصف لمن كان تابعًا لمذهب إمام معين، ثابتًا على قواعده، منافحًا عن اختياراته، فهو يحمل صاحبه على أن يعتقد أن قوله صحيح يحتمل الخطأ، وأن قول غيره خطأ يحتمل الصواب، بخلاف التعصُّب الفكري، فإنه يحمل صاحبه على اعتقاد أن قوله صحيح لا يحتمل الخطأ، وقول غيره خطأ لا يحتمل الصواب، ولهذا يقول الشافعي: "ما كلمت أحدًا قط إلا أحببتُ أن يوفَّق ويُسدد ويُعان، ويكون عليه رعاية من الله وحفظ، وما كلمتُ أحدًا قط إلا ولم أبال بيَّن الله الحق على لساني أو لسانه" [1]. ولهذا فإن طريق المتعصِّب هو الصد عن معرفة دليل المخالف، أو الاستماع إليه، أو اعتباره في النظر بأي وجه من الاعتبار، وثمرة ذلك هو الاختلاف والفرقة والتباغض.

المطلب الثاني: صور التعصُّب الفكري في القرآن الكريم:

إن المتتبع لنصوص القرآن الكريم يجد أنه قد ذكر صورًا متعددة للتعصُّب الفكري، مبينًا أنه سلوك أهل الكفر والنفاق في تعاملهم مع رسلهم وأنبيائهم – عليهم الصلاة والسلام –، وطلباً للاختصار سأذكر بعضًا منها على سبيل التمثيل لا الحصر، وهي كالآتي:

- المجادلة بالباطل، حتى وإن كانت البراهين والدلائل واضحة أمامهم، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّى إِذَا جَآؤُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام:25]، أي حتى إذا صاروا إليك بعد معاينتهم الآيات الدالة على حقيقة ما

(1) الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد، الفقيه والمتفقه، 2/ 49.

جئتهم به، يجادلونك، فيقول هؤلاء الذين جحدوا آيات الله وأنكروا حقيقتها، بعد بيانك لهم الحق: ما هذا إلا أساطير الأولين [1]. وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[غافر:35] ، أي الذين يدفعون الحق بالباطل، ويجادلون الحُجج بغير دليل وحجة معهم من الله، فإن الله يمقتُ على ذلك أشد المقت؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: والمؤمنون أيضًا يبغضون من تكون هذه صفته، فإن من كانت هذه صفته، يطبع الله على قلبه، فلا يعرف بعد ذلك معروفًا، ولا ينكر منكرًا؛ ولهذا قال: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ﴾ أي: على اتباع الحق [2].

- الاستكبار عن قبول الحق بعد وضوح دلائله وشواهده، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان:7]، قيل: نزلت في النضر بن الحارث، كان يأتي الحيرة فيشتري كتبًا فيها أخبار الأعاجم ويحدث بها أهل مكة، ويقول: إن محمدًا يحدثكم أحاديث عاد وثمود، وأنا أحدثكم حديث فارس والروم، وأقرأ عليكم كما يقرأ محمد أساطير الأولين [3]، ومعنى ﴿وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾: أي إذا تليت عليه الآيات القرآنية، ولى عنها وأعرض وأدبر وتصام وما به من صمم، كأنه ما يسمعها؛ لأنه يتأذى بسماعها، إذ لا انتفاع له بها،

(1) ينظر: الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير، أبو جعفر، جامع البيان في تأويل القرآن، (ت: 310هـ)، (11/ 308)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى 1420هـ-2000م.

(2) ينظر: ابن كثير، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، 7/ 144

(3) ينظر: الواحدي، علي بن أحمد، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، 3/ 440. والزمخشري، محمود بن عمرو، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 3/ 490.

ولا أربَ له فيها [1]. وقال تعالى أيضًا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر:56]، أي إن الذين يجادلون بغير حجة ولا برهان، ما في صدورهم إلا كبر يتكبرون من أجله عن اتباعك، وقبول الحق الذي أتيتهم به؛ حسدًا منهم على الفضل الذي آتاك الله، والكرامة التي أكرمك بها، وهذا الأمر الذي حسدوك عليه ليسوا بمدركيه؛ لأن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء [2].

- التمسك بحُججٍ واهية عند عجزهم عن المواجهة؛ تعصُّبًا وعنادًا منهم، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلاَ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:7]، يخبر تعالى عن تعنت الكفار وعنادهم وتكذيبهم للحق بلا حجة ولا دليل منهم، وإنما تعللوا بقولهم: مال هذا الرسول يأكل الطعام، يعنون كما نأكله، ويحتاج إليه كما نحتاج إليه، ويمشي في الأسواق – أي يتردد فيها وإليها – طلبًا للتكسب والتجارة، فقالوا: هلا أنزل إليه ملك من عند الله فيكون له شاهدًا على صدق ما يدعيه، وهذا كما قال فرعون: ﴿فَلَوْلاَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاء مَعَهُ الْمَلاَئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزُّخرُف:53]، وكذلك قال هؤلاء على السواء، تشابهت قلوبهم، ولهذا قالوا: أو يلقى إليه كنز، أي علم كنز ينفق منه، أو تكون له جنة يأكل منها، أي تسير معه حيث سار، وهذا كله سهل يسير على الله، ولكن له الحكمة في ترك ذلك وله الحجة البالغة [3].
- الاستهزاء والسخرية بالأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – وبالآيات التي أُنزلت عليهم، قال تعالى: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ﴾ [يس:30]، يعني إذا جاءتهم الرسل كذبوهم، فإذا أتوا بالآيات أعرضوا عنها وما التفتوا

(1) ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 6/ 332.
(2) ينظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، 21/ 404.
(3) ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 6/ 87.

إليها؛ استهزاءً بها، وتقليلًا من شأنها [1]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُون﴾ [البقرة:14]، أي إذا لقي هؤلاء المنافقون المؤمنين أظهروا لهم الإيمان والموالاة، غرورًا منهم للمؤمنين ونفاقًا وتُقية، وليشركوهم فيما أصابوا من خير ومَغنم، فإذا انصرفوا وذهبوا إلى شياطينهم – يعني سادتهم وكبراءهم ورؤساءهم من أحبار اليهود ورؤوس المشركين والمنافقين – قالوا لهم: إنا على مثل ما أنتم عليه، إنما نحن نستهزئُ بالقوم ونلعبُ بهم [2].

- تقديس ما ورثوه من كفر الآباء والأجداد، وعدم الانفتاح لتقبُّل الأدلة والبراهين المثبتة لفساد ما ذهبوا إليه واعتقدوه، قال تعالى: ﴿فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَـؤُلاء مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوص﴾ [هود:109]، يخبر الله تعالى في هذه الآية أنهم لم يعبدوا ما عبدوا من الأوثان إلا اتباعًا منهم منهاج آبائهم، واقتفاءً منهم آثارهم في عبادتها، لا عن أمر الله إياهم بذلك، ولا بِحُجة تبينوها توجب عليهم عبادتها [3]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُون﴾ [البقرة:170]، فإنه لما دعا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – اليهود من أهل الكتاب إلى الإسلام ورغبهم فيه، وحذرهم عقاب الله ونقمته، قال له رافع بن خارجة، ومالك بن عوف: بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا؛ فإنهم كانوا أعلم وخيرًا منا، فأنزل الله فيهما هذه الآية، معقبًا على قولهم بقوله سبحانه: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُون﴾، والمعنى: أيتبعون آباءهم وإن كانوا جهالًا لا يعقلون شيئًا من أمور الدين؛ لأنهم كانوا يعقلون أمر الدنيا

(1) ينظر: الرازي، محمد بن عمر، مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، 26/ 287.

(2) ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 1/ 182.

(3) ينظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، 15/ 491.

فقط [1].

- رؤية الأمور وتصورها على غير حقيقتها، فاختلال الموازين والمعايير يحدث عندما يفسُد التصور للشيء بسبب غلبة التعصُّب، فيُمدح من يستحق الذم، ويُذم من يستحق المدح، وهذا ما حدث مع كفار قريس، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُواْ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء وَلَـكِن لاَّ يَعْلَمُون﴾ [البقرة:13]، ويقصدون بالسفهاء هنا أصحاب النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – وإنما عنى المنافقون بقولهم: أنؤمن كما آمن السفهاء، إذ دعوا إلى التصديق بسيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – وبما جاء به من عند الله، والإقرار بالبعث، فقيل لهم: آمنوا كما آمن أصحاب محمد وأتباعه من المؤمنين المصدقين به، وبما افترض عليهم على لسان رسوله محمد – صلى الله عليه وسلم – وفي كتابه وباليوم الآخر، فقالوا إجابة لقائل ذلك لهم: أنؤمن كما آمن أهل الجهل؟ ونصدق بمحمد – صلى الله عليه وسلم – كما صدق به هؤلاء الذين لا عقول لهم ولا أفهام؟ وهذا ديدنهم في تصوير الأمور على غير حقيقتها؛ تعصُّبًا منهم في عدم قبول الحق والاعتراف به [2].
- بثُّ الشائعات المغرضة؛ للنيل من المخالف، وزعزعة ثقة الناس به، كما فعل المنافقون مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في المدينة، قال الله تعالى عنهم: ﴿وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلا﴾ [النساء:83]، وذلك أن النبي – صلى الله عليه وسلم – كان يبعث السرايا فإذا غَلبوا أو غُلبوا بادر المنافقون يستخبرون عن حالهم، فيفشون ويحدثون به قبل أن يُحدِّث به رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فيضعفون به قلوب المؤمنين، قال المفسرون: وذلك سببٌ

(1) ينظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، 15/ 491. والبغوي، الحسين بن مسعود، معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي، 1/ 198.

(2) ينظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، 1/ 293.

للضـــرر من وجوه: أحدها: أن مثل هذه الإرجافات لا تنفك عن الكذب، وثانيها: إن كان ذلك الخبر من جانب الأمن زادوا فيه زيادات كثيرة، فإذا لم توجد تلك الزيادات، أورثَ ذلك شبهة للضعفاء في صدق الرسول – صلى الله عليه وسلم –؛ لأن المنافقين كانوا يروون تلك الإرجافات عنه، وإن كان ذلك الخبر خوفًا، تشوش الأمر على ضعفاء المســلمين بســببه، ووقعوا في الحيرة والاضــطراب، فكان ذلك ســببًا للفتنة، وثالثها: أن العداوة الشـديدة كانت قائمة بين المسـلمين وبين الكفار، فكان كل واحد من الفريقين يجتهد في إعداد آلات الحرب وانتهاز الفرصـــة، فكل ما كان أمنًا لأحد الفريقين، كان خوفًا للفريق الثاني [1]. وقال تعالى أيضًـا: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَـأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُـــهُودًا إِذْ تُفِيضُـــونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّـمَاء وَلاَ أَصْـغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس:61]، فالهاء في قوله: ﴿إِذْ تُفِيضُـــونَ فِيهِ﴾، عائدة على القرآن، والمعنى: إذ تشيعون فيه الكذب [2].

- العجلة في إصـــدار الأحكام ضـــد المخالف له في الرأي، فيرميه بالكفر أو الفســـق أو الجهل، بل يتجاوز الأمر مداه، فإذا توفي يقول: مســـتراحٌ منه أو لا غفر الله له أو لا أدخله الله الجنة، وغيرها من عبارات التعصُّـــب المنافية لهدي القرآن في التعامل مع المخالف، فالله سبحانه أمر نبيه – عليه الصلاة والسلام – بالحسنى في مجادلة الخصوم، فقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَـلَّ عَن سَـبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل:125]، أي: من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال، فليكن بالوجه الحسـن برفق ولين وحسـن خطاب، كما

(1) ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 10/ 153. والنعماني، عمر بن علي، اللباب في علوم الكتاب، 6/ 521.

(2) ينظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، 15/ 115. والقرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، 8/ 356.

أمر الله تعالى موسى وهارون – عليهما السلام – حين بعثهما إلى فرعون فقال لهما: ﴿فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه:44]. ولهذا جاء في الحديث الذي رواه مسلم، عن جندب، أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حدَّث "أن رجلًا قال: والله لا يغفر الله لفلان، وإن الله تعالى قال: من ذا الذي يتألى عليَّ ألا أغفرَ لفلان، فإني قد غفرتُ لفلان، وأحبطتُ عملك" (1).

- الأخذ بالتشديد في مواطن التيسير، وهو المعبَّر عنه في القرآن بالغلو، الذي هو مجاوزة الحد في كل شيء، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ﴾ [المائدة:77]، أي: يا معشر اليهود والنصارى لا تتجاوزوا الحد في دينكم، وتفرطوا كما أفرط أسلافكم، فتقولوا عن عيسى إنه إله، أو ابن إله، وغلو اليهود قولهم في عيسى إنه ليس ولد رشدة – أي هو ابن زنا – وغلو النصارى قولهم إنه إله، ولهذا جاء التوجيه بعدها بأن لا يتبعوا أسلافهم وأئمتهم الذين كانوا على الضلال قبل بعثة النبي – صلى الله عليه وسلم – وأضلوا كثيرًا من الخلق بإغوائهم لهم، وضلوا عن الطريق الواضح المستقيم، قال القرطبي (2): (وتكرير ضلوا للإشارة إلى أنهم ضلوا من قبل وضلوا من بعد، والمراد الأسلاف الذين سنوا الضلالة وعملوا بها من رؤساء اليهود والنصارى) (3)، ونصوص القرآن الكريم بمجموعها تحثُّ على الأخذ بمبدأ التيسير في كل الأحكام الشرعية، ففي قوله تعالى:

(1) مسلم بن الحجاج، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، 4/ 2023، باب: النهي عن تقنيط الإنسان من رحمة الله تعالى.

(2) القرطبي: محمد بن أحمد بن أبي بكر، (671هـ = 1273م)، الأنصاري الأندلسي، من كبار المفسرين، من أهل قرطبة، رحل إلى الشرق واستقر بمصر، وتوفي فيها. من كتبه الجامع لأحكام القرآن، والأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، والتقريب لكتاب التمهيد، وغيرها. ينظر: الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، الوافي بالوفيات، 2/ 87. والزركلي، الأعلام، 5/ 322.

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 6/ 252.

﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة:185]، وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:78]، دلالة واضحة على ذم التشدد والغلو، فالتيسير من أصول الشريعة الإسلامية، وقد كان – صلى الله عليه وسلم – يأمر به أصحابه الذين يرسلهم لنشر الدِّين، فقال لمعاذ وأبي موسى: «يسرا ولا تُعسِّرا» (1)، وقال: «إنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين» (2)، وقال لمعاذ – رضي الله عنه – لما شكا بعض المصلين خلفه من تطويله: «أفتان أنت؟» (3).

- سوء الظن بالمخالف، فلا يرى في مخالفه الأعمال الحسنة، بل ينصَب جهده في الاتهام له بالباطل، فيمتلئ قلب المتعصِّب بالعداوة والبغضاء، وسوء الظن أصلٌ للإفساد والتكذيب، ولهذا دعانا القرآن الكريم إلى اجتنابه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

(1) والحديث عن سعيد بن أبي بردة، عن أبيه، عن جده، أن النبي – صلى الله عليه وسلم – بعث معاذًا وأبا موسى إلى اليمن، قال: يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تختلفا. البخاري، محمد بن إسماعيل، أبو عبد الله، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وسننه وأيامه = صحيح البخاري، 4/ 65، باب: ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب، وعقوبة من عصى إمامه. وصحيح مسلم، 3/ 1359، باب: في الأمر بالتيسير، وترك التنفير.

(2) والحديث عن أبي هريرة، قال: قام أعرابي فبال في المسجد، فتناوله الناس، فقال لهم النبي – صلى الله عليه وسلم –: دعوه وهريقوا على بوله سجلًا من ماء، أو ذنوبًا من ماء، فإنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين. صحيح البخاري، 1/ 54، باب: صبُّ الماء على البول في المسجد.

(3) والحديث عن جابر قال: كان معاذ يصلي مع النبي – صلى الله عليه وسلم – ثم يأتي فيؤم قومه، فصلى ليلة مع النبي – صلى الله عليه وسلم – العشاء ثم أتى قومه فأمهم، فافتتح بسورة البقرة، فانحرف رجل فسلم ثم صلى وحده وانصرف، فقالوا له: أنافقت يا فلان؟ قال: لا والله، ولآتين رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فلأخبرنه، فأتى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال: يا رسول الله، إنا أصحاب نواضح نعمل بالنهار، وإن معاذًا صلى معك العشاء، ثم أتى فافتتح بسورة البقرة، فأقبل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على معاذ فقال: يا معاذ أفتان أنت؟ اقرأ بكذا واقرأ بكذا. صحيح البخاري، 1/ 142، باب: مَن شكا إمامه إذا طوَّل. وصحيح مسلم، 1/ 339، باب: القراءة في العشاء.

اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ...﴾ [الحُجُرات:12]، ووجهنا إلى تقديم حسن الظن على سوء الظن فقال: ﴿لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور:12].

المطلب الثالث: أسباب التعصُّب الفكري ونتائجه:

أولًا: أسباب التعصب الفكري: وأبرز هذه الأسباب هي:

- قلة المعرفة بالأحكام الشرعية، والأخذ بظواهر النصوص، وعدم استيعاب وفهم مقاصد الشريعة الإسلامية، ولهذا يُقال: من اتسع علمه قلَّ إنكاره، فإن أقلَّ الناس علمًا هم أكثرهم إنكارًا؛ لأنهم يتصورون أن العلم هو ما أحاطوا به، فيسارعون في الإنكار على من خالفهم، ولقد ذمَّ الله تعالى الجاهلين في مواطن كثيرة في القرآن، فقال تعالى في وصف مسلمة أهل الكتاب: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص:55]، والمعنى: لا يجارون أهل الجهل والباطل في باطلهم، فقولهم: ﴿لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾، أي: لا نريد محاورة أهل الجهل ومسابتهم [1]، فالجهل هو السبب الرئيسي للإنحراف الفكري، والتعصُّب هو النتاج الطبيعي له، وقد بين الله تعالى أن الجدال المقرون بالجهل كيف يكون؟ والجدال بالحجة والبرهان كيف يكون؟ ونبَّه على الفرق بين البيانين فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ [فاطر:19]، أي: ما يستوي الأعمى الذي لا يبصر شيئًا بسبب جهله، وهذا مثل الكافر الذي لا يتأمل حجج الله بعينيه فيتدبرها ويعتبر بها، فيعلم وحدانيته وقدرته على خلق ما شاء، ويؤمن به، والبصير الذي يرى بعينيه ما شُخِّص لهما ويبصره، وذلك مثلٌ للمؤمن الذي يرى بعينيه حُجج الله فيتفكر فيها ويتعظ، ويعلم ما دلت عليه من توحيد صانعه وعظيم سلطانه [2].
- ترك المُحكم واتباع المتشابه، فإن الانشغال بالتكلُّف في الاستنباط واتباع المتشابه لِرَد

(1) ينظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، 19/ 598.

(2) ينظر: القاسمي، محمد بن محمد، محاسن التأويل، 8/ 315.

الـمُحكم هو أحد الأسباب المؤدية أيضًا إلى التعصُّب، ولقد ضلَّ أهل الكتاب من قَبلنا بهذا الأمر، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران:7]، قيل: نزلت هذه الآية في نصارى نجران، حين قدم وفدهم على النبي – صلى الله عليه وسلم – فحاججوه وخاصموه في عيسى – عليه السلام – وقالوا: ألستَ تزعم أنه كلمة الله وروح منه؟ قال: بلى، قالوا: فحسبُنا، فأنزل الله فيهم قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ﴾، ثم إن الله جل ثناؤه أنزل: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:59]، وقال آخرون: بل أنزلت هذه الآية في أبي ياسر بن أخطب، وأخيه حُيي بن أخطب، والنفر الذين ناظروا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في قدر مدة أُكُله وأُكُل أمته، وأرادوا علم ذلك من قِبَل قوله: الم، والمص والمر، والر، فقال الله جل ثناؤه فيهم: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾، يعني هؤلاء اليهود الذين قلوبهم مائلة عن الهدى والحق، فينشغلون بتتبُّع معاني هذه الحروف المقطعة المحتملة التصريف في الوجوه المختلفة التأويلات؛ ابتغاء الفتنة، وقال آخرون: بل عنى الله تعالى بذلك كل مبتدع في دينه بدعة مخالفة لما ابتعث به رسوله سيدنا محمدًا – صلى الله عليه وسلم – بتأويلٍ يتأوله من بعض آي القرآن المحتملة التأويلات، وإن كان الله قد أحكم بيان ذلك، إما في كتابه وإما على لسان رسوله [1]، وروى البخاري ومسلم في صحيحيهما، عن أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – أن النبي – صلى الله عليه وسلم — تلا عليهم هذه الآية، فقال: "إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سمَّى الله،

(1) ينظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، 6/ 186.

فاحذروهم" [1].

- طلبُ العلم عبر المطالعة في الكتب فقط، دون الرجوع إلى أهله؛ لبيان ما أُشكل، وتفسير ما أُبهم، فالاستقلالية بالقراءة من الكتب فقط فيها من المخاطر الكثيرة، لعلَّ من أجلها الفهم غير الدقيق، والذي يولِّد تعصُّبًا مقيتًا عند صاحبه، والعلم له أدواته ووسائله، ومن أركانه وجود شيخ يُصوِّب لك الخطأ، ويُقيِّد لك المطلق، ويُخصِّص لك العام، ويحفظ عليك الوقت والجهد، وما أخذ أحدٌ العلمَ من الكتاب – دون مُعلِّم – إلاَّ ضل، قال الدكتور محمد حسن هيتو: "... ولقد كان الناس في الماضي يتندرون بما وقع من تصحيف، وتحريف، وسوء فهم لمن أخذ العلم من الكتاب، دون وجود المعلم أو المرشد، مما صار حكاية أو طُرفة يُتَنَدَّرُ بها في مجالس العلم، وفي نفس الوقت تكون حكمة، يُتَوخى بها التأكيد على التلقي السليم للعلم، بالطرق السليمة، ولقد دوَّن أصحاب الحواشي الكثير من هذه النوادر في حواشيهم على الكتب؛ لما ذكرنا من الحكمة؛ وللترفيه عن طالب العلم إذا دقت المسألة، واحتدم حولها النقاش، واشتد النزاع، فطالما قرأنا وسمعنا عن الذي حَرَّف قوله – صلى الله عليه وسلم –: «المؤمن كيِّسٌ فَطِنٌ» [2]، ونقله بقوله: المؤمنُ كيسُ قُطن، وقرأ بعضهم قول الفقهاء عن صفة القبر، وأنه يستحب أن يسوىَّ اللَّبِنُ تحته، فلما حضر دفن أحد الموتى، أحضر معه قِدر

(1) صحيح البخاري، 6/ 33، باب: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ﴾. وصحيح مسلم، 4/ 2053، باب: النهي عن اتباع متشابه القرآن، والتحذير من متبعيه، والنهي عن الاختلاف في القرآن.

(2) والحديث عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: المؤمن كيِّسٌ فَطِن حذر. القضاعي، محمد بن سلامة 1/ 107، باب: المؤمن كيس فطن حذر. قال العجلوني: رواه الديلمي والقضاعي عن أنس رفعه، وهو ضعيف، وللديلمي عن أنس أيضًا بلفظ: المؤمن فطن حذر وقاف متثبت لا يعجل، عالم ورع، والمنافق همزة لمزة حطمة، لا يقف عند شبهة، ولا عند محرم، كحاطب ليل لا يبالي من أين كسب، ولا فيما أنفق، وأخرجه البخاري في تاريخه عن كعب بن عاصم بمثله؛ إلا أنه زاد كيس كما في الترجمة، ولم يقل كحاطب ليل.. إلى آخره. العجلوني، إسماعيل بن محمد، كشف الخفاء ومزيل الإلباس.

لبنٍ وأراقه في القبر، فلما قيل له في هذا، قال: لقد قرأتُ هذا في الكتاب، وأنه يُندب أن يسوي اللَّبَنُ في القبر قبل الدفن، وليبرهن على صدق كلامه، أحضر الكتاب، فكان البرهان على سوء فهمه، وقرأ بعضهم قول النبي – صلى الله عليه وسلم –: «إذا سمعتم النداء إلى الصلاة، فلا تأتوها وأنتم تَسْعَون، ولكن ائتوها بِسَكِيْنَةٍ ووقار» [1]، والكتابة في الماضي لم تكن منقطة كالكتابة في الوقت الحاضر، ولم يكن قد تلقى الحديث عن الشيوخ، وإنما بفهمه وهمته، فقرأه: ولكن ائتوها بِسَكِّيْنَةٍ وفار، فوضع في جيبه سكينة وفأراً وذهب بهما إلى المسجد، والنوادر من هذا القبيل كثيرة جداً، يمكن أن يُصنَّف فيها كتاب كامل، يكون حافلاً بعجائب مما يمكن للجهل أن يظهره ويفعله، وللعقل أن يقف عليه ويتأمله، ليرى من خلاله أثر نعمة الله على عباده بالعقل، ونعمة الهداية بتثقيفه بالطريق السليم للعلم والثقافة" [2]، فهذه الوقائع وغيرها تكشف أهمية وجود الأشياخ، فقد ذكر أهل العلم أن الأصل في الطلب أن يكون بطريق التلقين والتلقي عن الأساتذة، والأخذ من أفواه الرجال لا من الصحف وبطون الكتب، وقد قيل: من دخل في العلم وحده؛ خرج وحده؛ أي: من دخل في طلب العلم بلا شيخ؛ خرج منه بلا علم.

- الارتباط بالأشخاص والانتصار لهم، لا بالحق والدليل، وقد قال الإمام علي بن أبي طالب – رضي الله عنه –: "الحق لا يُعرف بالرجال، وإنما يُعرف الرجال بالحق" [3]،

(1) والحديث كما في موطأ مالك، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: إذا ثُوِّب بالصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون، وأتوها وعليكم بالسكينة والوقار، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا، فإن أحدكم في الصلاة ما كان يعمد إلى الصلاة. مالك بن أنس، الأصبحي المدني، موطأ الإمام مالك، 1/ 72، باب: ما جاء في النداء.

(2) محمد حسن هيتو، المتفيهقون، ص 32.

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، 1/ 340. والمناوي، زين الدين محمد، المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين، فيض القدير شرح الجامع الصغير، 1/ 17.

وهذا المعنى يُغفله المتعصِّب، فتجده يجعل بعض الرجال وقوله حجة على غيره، من غير نظر في الأدلة ودلالتها، والأصل أن الحق يُقبل لكونه موافقًا للدليل وإن جاء ممن يخالفه الرأي، ولما دلَّ الشيطانُ أبا هريرة – رضي الله عنه – إلى آية الكرسي؛ لتكون حِرزًا له، قال النبي –صلى الله عليه وسلم –: «صدقكَ وهو كذوب» (1)، وأهل السنة والجماعة يقبلون من كل الطوائف ما يرونه في نظرهم موافقًا للصـــواب، ويردون ما يرونهم مخالفًا، من غير تجريحٍ وتشـــكيكٍ في نوايا المخالف وصـــدق وجهته لطلب الحق، ولكن أهل التعصُّب إذا استشهدتَ أمامهم بقول عالمٍ من العلماء في مسألةٍ، يحتجُّ عليك بأن هذا العالم قد أخطأ وجانب الصواب في مسألةٍ أخرى، فالحق عند هؤلاء معتبرٌ بالرجال؛ فلو سُـــلِّم لهم أن العالم الفلاني أخطأ في هذه المســـألة، فهذا لا يلزم منه أنه يخطئ في كل المســائل، وفريقٌ آخر من أهل التعصُّـب يسـلك – بناءً على هذه القاعدة – مسـلكًا مضادًا، فيتبادر إلى ذهنه عند قولك: الحق لا يعرف بالرجال، عدم الاعتراف بأهل العلم قاطبة واجتهاداتهم في المســائل، ويقول زاعمًا: هم رجال ونحن رجال، ولا يدري أنه إنما عُرف الحق عن طريق نقل الرجال، ولولا أن أحدنا وَقَفَ على ما نقله له العلماء والحكماء والفقهاء والثقات من الرواة؛ لما أمكنه بحالٍ من الأحوال أن يعرف الحق الذي يظن أنه هو الحق، قال الشـــاطبي (2): "إذا ثبت أن الحق هو المعتبر دون الرجال، فالحق

(1) والحديث رواه البخاري، عن أبي هريرة – رضي الله عنه –، قال: وكلني رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آتٍ فجعل يحثو من الطعام فأخذته، فقلت لأرفعنك إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فذكر الحديث –، فقال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي، لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فقال النبي – صلى الله عليه وسلم –: صدقك وهو كذوب ذاك شيطان. صحيح البخاري، 4/ 123، باب: صفة إبليس وجنوده.

(2) الشاطبي: إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي، (790هـ = 1388م)، المالكي الشهير بالشاطبي، أبو إسحاق، محدث، فقيه أصولي، لغوي، مفسر، مات في شعبان، من مؤلفاته: عنوان التعريف بأسرار التكليف، الموافقات في أصول الأحكام، وعنوان الاتفاق في علم الاشتقاق، والاعتصام. ينظر: كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، 1/ 118.

أيضًا لا يعرف دون وسائطهم، بل بهم يُتوصَّل إليه، وهم الأدلاء على طريقه" [1]، ولهذا إذا نظرت إلى أي علم من العلوم، فلا تجد سبيلًا إلى معرفة هذا العلم أو الاطلاع عليه إلا بالتلقي عن الشيوخ أو مطالعة الكتب، وكلاهما معرفة للحق بمعرفة الرجال، وليس من الصواب أن تقول: يكفيني كتاب الله، فالله عز وجل إنما أنزله ليبينه لنا أعظم رجل، وهو رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال تعالى: ﴿... وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:44]، ثم تناقل هذا الفهم عنه رجالٌ عن رجالٍ حتى وصل إلينا.

- اختلاط المفاهيم، وعدم الإلمام الجيد بدلالات الألفاظ، أو الجهل في التفريق بين النصوص التي دلالتها على الأحكام قطعية، والأخرى التي دلالتها على الأحكام ظنية، واعتبار القسم الثاني هو محل النظر والاجتهاد، والمصيبُ فيه من العلماء له أجران والمخطئ له أجر واحد، بل هناك من العلماء من اعتبر أن كل مجتهد في هذه الفروع مصيب، وقالوا: بأن المسائل التي لا نصَّ فيها، ليس لله تعالى فيها قبل الاجتهاد حكمٌ معين، بل حُكمُ الله تعالى فيها تابع لظنِّ المجتهدين [2]، فجهل المتعصِّب بهذه المفاهيم يوقعه في خطر عظيم، ومشكلة فكرية كبيرة؛ وذلك باعتقاده أن كل دلالات النصوص قطعية، فهي لا تحتمل الخلاف، ولا يمكن فيها إلا قولًا واحدًا، ولهذا لا يفقه أن المذهب الذي ينتمي إليه غالب مسائله ظنية؛ لأن مبناها على الاجتهاد، وهذا يعني أنه يجوز لغيره أن يقلد إمامًا آخر يرى الصواب فيما ذهب إليه، أما النصوص التي دلالتها على الأحكام قطعية، فهذه لا مجال للاختلاف فيها، وهي من القواسم المشتركة التي ينبغي أن تكون سببًا في جمع المسلمين على كلمة سواء؛ تطبيقًا للقاعدة المشهورة: نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه.
- سؤال غير أهل العلم، واعتبار مجرد إقامة المظهر العام للتديُّن يُعطي الحق لصاحبه في

(1) الشاطبي، إبراهيم بن موسى، الاعتصام، 2/ 880.

(2) الإسنوي، عبد الرحيم بن الحسن، نهاية السول شرح منهاج الوصول، ص 399.

التكلم بأمور الدين، وهذا سلوك خطير، نبَّه الله تعالى عنه بقوله: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولا﴾ [الإسراء:36]، أي: لا تقل سمعتُ ولم تسمع، ورأيتُ ولم ترَ، وعلمتُ ولم تعلم [1]، كما بين القرآن الكريم أن نتوجه بالسؤال لأهل العلم والاختصاص، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُون﴾ [النحل:43]، فأرشدنا القرآن الكريم إلى اللجوء لذوي الخبرة وأهل الاختصاص كلٍّ في مجال تخصّصه، والمراد بأهل الذِّكْر هنا: هم أهل التخصص والعلم والخبرة في كل فنٍّ وعلمٍ؛ وهذا مبني على عموم لفظ الآية الكريمة لا على خصوص سببها؛ وحملُ اللفظ على عمومه – كما هو مقرر – أولى، إلا ما خصَّه الدليل [2]، كما عَلَّمنا النبي – صلى الله عليه وسلم – أيضًا احترام التخصُّص؛ فبرغم عِلْمه – صلى الله عليه وسلم – الرباني، إلا أنَّه كان يستشير المتخصصين من الصحابة في كافة الشؤون الدنيوية؛ ليعلمنا اللجوء إلى أهل التخصُّص، وكان – صلى الله عليه وسلم – يُنوِّه بتخصصات أصحابه الكرام؛ إشادة بهم؛ ولتنبيه الناس حتى يكونوا على بيِّنة من صاحب كلّ تخصُّص؛ فيلجؤوا إليهم عند الحاجة، وقد قال عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه –: "لا يزالُ الناسُ بخير ما أتاهم العِلم من أصحاب محمد – صلى الله عليه وسلم –، ومن أكابرهم، فإذا جاء العِلم من قِبَل أصاغرهم فذاك حين هلكوا" [3].

- الإعجاب بالذات والتكبر، وهو الامتناع عن قبول الحق، وقد توعَّد الله تعالى بالعقاب الشديد لمن كان هذا حاله، فقال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِين﴾

(1) ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 20/ 339. والطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، 17/ 446.
(2) ينظر: الزركشي، محمد بن عبد الله، البحر المحيط في أصول الفقه، 5/ 67.
(3) الطبراني، سليمان بن أحمد، المعجم الكبير، 9/ 114.

[الأعراف:146]، أي: سأصرفهم عن قبول آياتي والتصديق بها لعنادهم الحق، فعوقبوا بحرمان الهداية، وهذا كقوله: ﴿... فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف:5]، ومعنى يتكبرون في الآية: أي يرون أنهم أفضل الخلق، وأن لهم من الحق ما ليس لغيرهم؛ فصرفهم الله عن الاعتبار بما في هذه الآيات، وقوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ﴾، يعني: الهدى والبيان الذي جاء من الله، ﴿لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلا﴾ أي: دينًا، وقوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ﴾ أي: طاعة الشيطان وضلالته، يتخذوه سبيلًا، أي: دينًا، وقد فعل الله ذلك بهم لأنهم كذبوا بالآيات، أي: جحدوا الإيمان بها، وكانوا عن النظر فيها والتدبُّر لها غافلين، وقد صوَّر القرآن الكريم مثالًا آخر لتكبر المشركين عن قبول الحق والإذعان له، فقال تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف:11]، أي: قالوا عن المؤمنين بالقرآن: لو كان القرآن خيرًا ما سبقنا هؤلاء إليه، يعنون بلالًا وعمارًا وصهيبًا وخبابًا، وأشباههم وأقرانهم من المستضعفين والعبيد والإماء؛ وما ذاك إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله وجاهة وله بهم عناية، وقد غلطوا في ذلك غلطًا فاحشًا، وأخطئوا خطئًا بينًا، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولواْ أَهَـؤُلاء مَنَّ اللّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام:53]، أي: يتعجبون: كيف اهتدى هؤلاء دوننا؛ ولهذا قالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾، فهذه الآيات وغيرها تصويرٌ حكاه القرآن عن خطورة الإعجاب بالذات، وأنه السبب الرئيسي للتعصُّب وعدم قبول الحق.

- القداسة للنص لا للفهم، فإن الأقوال أو الأفهام للنصوص لا تحمل في ذاتها صفة القداسة، بل تعظم بمقدار ما وافقت فيه النص، فعدم التفريق بين الأمرين – النص وفهمه – من حيث القداسة؛ يجعل المتعصِّب ينظر إلى كلام إمامه أو شيخه على أنه ملَكٌ معصوم، وإن لم يصرح بذلك، لكن عند التطبيق لا يعرف خطأ لشيخه أو إمامه، فأقوال شيخه دِينٌ لا ينبغي مخالفته، وهذا مظهر من مظاهر التعصُّب؛ لأنه قد يتبع

الباطل ويدفع الحق دون أن يشعر، والمتعصِّب بصيرته عمياء، وأذنه عن سماع الحق صمَّاء، فيحسبُ أن ما نشأ عليه هو الحق المطلق الذي لا يحتمل أدنى خطأ، وما أقلَّ أن تجد منصفًا غير متعصِّب في هذا الزمان.

ثانيًا: نتائج التعصب الفكري: وأبرزها كما يأتي:

- لا يمكن للمتعصِّب أن يرى الواقع على حقيقته؛ لأنه يرى فقط ما يميل إليه، وأما الرأي المخالف له فهو لا يعبأ به ولا يستمع له، وكأن على عينيه غشاوة، وفي أذنه صَمَم، قال تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الزُّخرُف:40]، أي: أفأنتَ يا محمد تُسمع من قد سلبه الله استماع حُججه التي احتج بها في هذا الكتاب فأصمَّه عنه، أو تهدي إلى طريق الهدى من أعمى الله قلبه عن إبصاره، واستحوذ عليه الشيطان، فزين له الردى، ومن كان في ضلال مبين، أي: في جَورٍ عن قصد سبيل الحق [1].
- التعصُّب الفكري يحمل صاحبه إلى النظر لمن خالفه الرأي نظرة دونية، فيدفعه إلى استباحة دمه وماله وعرضه، وإن كان لا يقصد هذا الأمر مباشرة، ولكن من خلال إصداره الفتوى بتكفيره، وهو بهذا يكون قد استباح كل شيء من حيث لا يشعر، وهذا بابُ شرٍّ عظيم، وقد حذر القرآن الكريم أشد التحذير من إطلاق الحكم بالكفر على المسلم بغير بينة واضحة لا إشكال فيها، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُواْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء:94]، قال الإمام الرازي [2]: "اعلم أن المقصود من هذه الآية المبالغة في تحريم قتل المؤمنين، وأمر المجاهدين بالتثبُّت فيه؛ لئلا يسفكوا دمًا حرامًا بتأويلٍ

(1) ينظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، 21/ 608.

(2) ينظر: السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين، طبقات الشافعية الكبرى. وكحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، 11/ 79.

ضعيف" [1]، ونقل الرازي أيضًا إجماع المفسرين على أن هذه الآيات إنما نزلت في حق جماعة من المسلمين لقوا قومًا فأسلموا، فقتلوهم، وزعموا أنهم إنما أسلموا من الخوف، وبيَّن أنه على هذا التقدير فتكون الآية قد وردت في نهي المؤمنين عن قتل الذين يظهرون الإيمان [2].

- التعصُّب الفكري يقطع النسيج الاجتماعي، ويوسع هوَّة الخلاف، ويعمل على زعزعة التعايش السِّلمي بين أفراد المجتمع، كما يلغي أواصر الحُب والمودة بينهم، وباستقراء وتتبع آيات القرآن الكريم نجد أنّ التعايش السِّلمي مقصد قرآني وقيمة حضارية رفيعة، دعا إليها الذِّكر الحكيم في إطار سياقات قرآنيّة مختلفة تحمل في مجملها معاني ودلالات واسعة وعميقة بشأن ترسيخ قيم التعايش والتعارف والتآلف والسلام والمحبة والتعاون، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة:208]، ومن الشواهد القرآنية التي نستدل بها على عظيم اهتمام الدين الإسلامي على ضرورة تحقيق مبدأ السِّلم في العالم، هو ما أكدت عليه الإشارات القرآنية، حيث ورد مصطلح (السَّلام) في القرآن الكريم أكثر من مرة، منها أنها صفةٌ لله تعالى، ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ ...﴾ [الحشر:23]، وصفةٌ للأنبياء والرسل، ﴿وَسَلاَمٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات:181]، وصفةٌ للمؤمن، ﴿وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ...﴾ [النساء:94]؛ ومن أجل هذا كله ينبغي نبذ التعصُّب حتى لا نفقد هذه النعمة التي يسعد فيها الإنسان بتعايشه مع أخيه الإنسان دون مشكلات ومنغصات، وكما قيل: إن القرآن يمنح الحق في الدفاع عن النفس، لكنه مع ذلك يدعو للتخلي التام عن العنف.

- التعصُّب الفكري يذكي النزاعات ويُطيل أمَد الخلاف، مما يتسبَّب في ضعف المجتمع وتفككه، وقد جاء الربط في القرآن الكريم بين لفظي (التنازع) و(الفشل) في ثلاثة مواضع،

(1) الرازي، مفاتيح الغيب، 11/ 189.

(2) ينظر: المرجع السابق، 10/ 183.

ففي غزوة أُحد، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم ...﴾ [آل عمران:152]، وفي غزوة بدر، قال تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ ...﴾ [الأنفال:43]، وأخيرًا قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال:46]، فقد بين تعالى أن النزاع يوجب أمرين: أحدهما: الفشل والضعف، والثاني: ذهاب الريح، أي: الدولة، وقيل: النصر [1]، فهذا إخبار واضح، ونهي جازم، وسنة ثابتة، يدلُّ على أن الفشل والتراجع – على مستوى الأمة أو الأفراد – إنما مرجعه إلى التنازع والاختلاف؛ إذ العلاقة بين الأمرين علاقة تلازمية.

(1) ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي، (15/ 489).

المبحث الثاني

معالجة النصوص القرآنية لمشكلة التعصُّب الفكري

المطلب الأول: ذمُّ التعصُّب الفكري في القرآن الكريم:

ورد في القرآن الكريم عدد من الآيات التي تتحدث عن مشكلة التعصُّب الفكري، وقد جاء مساقها في القرآن على سبيل الذَّم، فتارةً يقع على صفة التعصُّب مباشرة، وتارةً يقع الذَّم على من يتَّصف به، ونورد بعضًا منها على سبيل التمثيل، وبما يتلاءم مع إيصال الفكرة المطلوبة.

- قوله تعالى حكاية عن إبليس، عندما قارن بين نفسه وآدم – عليه السلام – حيث أخبر الله عنه أنه قال: ﴿... أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [ص:76]، فاستعمل قياسًا غير معتبر للوصول إلى نتيجة رفض أمر الله بالسجود لآدم – عليه السلام – فصرَّح بأن النار أفضل من الطين، وبناءً على ذلك رفض الأمر، وهذا نوعٌ من الإستعلاء والتكبر الناتج عن التعصُّب، وبهذا الفعل استحقّ إبليس غضب الله الأبدي، قال تعالى له: ﴿... فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيم * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الحِجر:34 . 35].
- قوله تعالى حكاية عن مشركي الجاهلية من جبابرة قريش ومستكبريها: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح:26]، فإن الرافضين لدعوة النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – كان سبب رفضهم هو تعصُّبهم لآلهتهم التي كانوا يعبدونها، وهذا التعصُّب المذموم هو الذي منعهم من الإيمان بالإسلام ونبيّه الكريم، وهذه الآية الكريمة تحكي ما كان من المشركين عند كتابة صلح الحديبية وتوثيقه، وذلك أن النبي – صلى الله عليه وسلم – دعا عليًّا – كرم الله وجهه – فقال له: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل بن عمرو: لا أعرف هذا ولكن اكتب: باسمك اللهم، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: اكتب باسمك اللهم،

فكتبها، ثم قال – عليه الصلاة والسلام –: اكتب: هذا ما صالح عليه محمَّد رسول الله سهيل بن عمرو، فقال سهيل: لو كنا نعلم أنك رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: والله إني لرسول الله وإن كذبتموني، اكتب: هذا ما صالح عليه محمَّد بن عبد الله سهيل بن عمرو، إلى آخر ما جاء في كتاب الصلح، وكأن الله سبحانه وتعالى هنا يقول: أي: يا محمد تذَكَّر، وذكِّر المؤمنين بذلك الوقت الذي ملأ فيه الكافرون قلوبهم كبرًا وأنفة، بعدت بهم عن الحق، ونأت عن الصراط المستقيم، حيث لم يذعنوا لما جاء به رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ورفضوا الإقرار بالبسملة والتسليم برسالة الرسول – صلى الله عليه وسلم – ولم يرضوا بكتابة ما أملاه – صلى الله عليه وسلم – في ورقة صلح الحديبية، ولكن الله برعايته ولطفه أدرك المؤمنين بكريم عطفه وعظيم فضله، فأنزل الطمأنينة والوقار والحِلم عليهم، وثبتهم وأرضاهم وشرح صدورهم (1).

- قوله تعالى بحقِّ العلماء الذين يعرفون الحقائق الهادية إلى الطريق المستقيم، ثم يفعلون خلاف ذلك؛ ممَّا يؤدِّي إلى ضياع الناس وانحرافهم: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة:5]، فإن العالم بعد معرفته الحق، لا يجوز له التعامي عنه، فالقرآن توعَّد من يُصرُّون على ما هم عليه من الأفكار الضالة أو المنحرفة؛ تعصُّبًا لها بدون وجه حق، وشبههم بالأنعَام، بل هم أضلُّ منها، وقد ذكر الله تعالى في هذه الآية منته على هذه الأمة، الذي ابتُعِث فيهم النبي الأمي، وما خصَّهم الله به من المزايا والمناقب، التي لا يلحقهم فيها أحد، حتى أهل الكتاب، الذين يزعمون أنهم العلماء الربانيون والأحبار المتقدمون، حمَّلهم الله التوراة، وأمرهم أن يتعلموها، ويعملوا بما فيها، ولكنهم لم يقوموا بما حُمِّلوا به، فلا فضيلة لهم، ومثلهم كمثل الحمار الذي يحمل فوق

(1) ينظر: الصابوني، محمد علي، صفوة التفاسير، 3/ 210.

ظهره أسفارًا من كتب العلم، فهل يستفيد ذلك الحمار من تلك الكتب التي فوق ظهره؟ وهل يلحق به فضيلة بسبب ذلك؟ أم حظه منها حملها فقط؟ فهذا مثلُ علماء اليهود الذين لم يعملوا بما في التوراة، وفيها الأمر باتباع محمد – صلى الله عليه وسلم – والبشارة به، والإيمان بما جاء به من القرآن، فهل استفاد من هذا وصفه من التوراة إلا الخيبة والخسران وإقامة الحجة عليه؟ فهذا المثل مطابق لأحوالهم، فيكون معنى الآية: بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله، الدالة على صدق رسولنا وصدق ما جاء به، والله لا يرشد الظالمين إلى مصالحهم؛ ما دام الظلم لهم وصفًا، والعناد لهم نعتًا، ومن ظلم اليهود وعنادهم أنهم يعلمون أنهم على باطل، ويزعمون أنهم على حق، وأنهم أولياء الله من دون الناس [1].

- قوله تعالى في ذم تعصُّب الأقوام السالفة بعضها ضد بعض: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَىَ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [البقرة:113]، وهذه الآية نزلت في يهود المدينة ونصارى أهل نجران، وذلك أن وفد نجران لما قدموا على النبي – صلى الله عليه وسلم – أتاهم أحبار اليهود فتناظروا حتى ارتفعت أصواتهم، فقالت لهم اليهود: ما أنتم على شيء من الدين، وكفروا بعيسى والإنجيل، وقالت لهم النصارى: ما أنتم على شيء من الدين، وكفروا بموسى والتوراة، فأنزل الله تعالى: وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب، وكلا الفريقين يقرؤون الكتاب، وقيل: معناه ليس في كتبهم هذا الاختلاف، فدل تلاوتهم الكتاب ومخالفتهم ما فيه على كونهم على الباطل، كذلك قال الذين لا يعلمون، يعني: آباءهم الذين مضوا، مثل قولهم، يعني عوام النصارى، وقيل: مشركي العرب، أي: كذلك قالوا في نبيهم محمد – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه: إنهم ليسوا على شيء من الدين، فالله يحكم بينهم يوم القيامة، أي: يقضي بين المحق والمبطل، فيما كانوا يختلفون

(1) ينظر: السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص 862.

فيه من الدين.

- كما ذمَّت النصـــوص القرآنية عددًا من الأقوام الســـابقة، كذبوا أنبياءهم، واتهموهم بالجنون والسَّفه وغيرها من الشائعات الباطلة؛ نتيجة ما كان عندهم من التعصُّب لما هم عليه من الإشـراك بالله تعالى، وعدم الخضـوع للحق والاعتراف به، فنذكر على سـبيل التمثيل، ما يلي: قال تعالى عن نوح – عليه الســـلام – مع قومه: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح:7]، أي: كلما دعوتهم إلى الإقرار بوحدانيتك، والعمل بطاعتك، والبراءة من عبادة كل ما ســواك؛ لتغفر لهم، جعلوا أصــابعهم في آذانهم؛ لئلا يســمعوا دعائي إياهم إلى ذلك، وتغشــوا في ثيابهم، أي: تغطوا بها؛ لئلا يســمعوا دعائي، وثبتوا على ما هم عليه من الكفر وأقاموا عليه، وتكبروا فتعاظموا عن الإذعان للحق، وقبول ما دعوتهم إليه من النصـــيحة [1]. وقال تعالى عن قوم هود – عليه الســـلام –: ﴿قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّـادِقِينَ﴾ [الأعراف:70]، أي: أجئتنا تتوعدنا بالعقاب من الله على ما نحن عليه من الدين، كي نعبد الله وحده، وندين له بالطاعة، ونهجر عبادة الآلهة والأصـــنام التي كان آباؤنا يعبدونها، ونتبرأ منها؟ فلســـنا فاعلي ذلك، ولا نحن متبعوك على ما تدعونا إليه، فأتنا بما تعِدُنا من العقاب والعذاب على تركنا إخلاص التوحيد لله، وعبادتنا ما نعبد من دونه من الأوثان، إن كنتَ من أهل الصـدق على ما تقول وتعِد [2]. وقال تعالى عن إبراهيم – عليه السـلام – وقومه: ﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُون * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِين﴾ [الأنبياء:52-53]، أي: ســـألهم إبراهيم – عليه الســـلام – موبخًا ومقرعًـا، ألكم عقول؟ كيف تعتكفون وتقيمون على هـذه التمـاثيـل ليلكم ونهـاركم عابدين؟ فلم يجدوا دليلًا من عقل، ولا برهانًا من كتاب، وإنما التعصُّـــب الأعمى الذي

(1) ينظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، 23/ 631.

(2) ينظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، 10/ 279.

لا يأتي إلا بشـــرٍ وفســـاد، فكان دليلهم أنهم وجدوا آباءهم قبلهم يعبدونها، ويعكفون عليها، ويتخذونها آلهة من دون الله، تلك هي حجتهم ولا حجة لهم غيرها، وقد دلت على ســخافتهم، وفســاد عقولهم [1]. وقال تعالى عن قوم موســى – عليه الســلام –: ﴿قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاء فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:78]، فعللوا عدم قبولهم دعوة موسى – عليه السلام – بأمرين: التمســـك بالتقليد للآباء، والحرص على الرياســـة الدنيوية؛ لأنهم إذا أجابوه وصـــدقوه صارت مقاليد أمر أمته إليه، ولم يبق للملك رئاسة تامة؛ لأن التدبير للناس بالدِّين يرفع تدبير الملوك لهم بالسياسات والعادات، ثم قالوا: وما نحن لكما بمؤمنين، تصريحًا منهم بالتكذيب، وقطعًا للطمع في إيمانهم [2].

المطلب الثاني: طرق معالجة النصوص القرآنية لمشكلة التعصُّب الفكري:

أنزل اللهُ القرآنَ هدًى للناس، وشفاءً لما في الصدور، وأمرَ عباده المؤمنين بتدبُّره والعمل بما فيه، ورغَّبهم في ذلك بذِكر ما يترتب عليه من فلاح في الدنيا والآخرة، كما حذرهم من الإعراض عنه، وأخبرهم في أكثر من موضـــع عن أثر هذا القرآن العزيز في تزكية النفوس وتغييرها، ولقد عالجت نصوصه المباركة قضايا كثيرة ومتشعبة، لعلَّ من أبرزها قضية التعصُّب

(1) وما تضمنته هذه الآية الكريمة من تسفيه رأي الكفار، وبيان شدة ضلالهم في تقليدهم آباءهم هذا التقليد الأعمى، جاء موضحًا في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُون﴾، [البقرة:170]، وكقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُون﴾، [المائدة:104]، وأوضح تعالى في سورة لقمان، أن ما وجدوا عليه آباءهم من الكفر والضلال طريق من طرق الشيطان، يدعوهم بسلوكها إلى عذاب السعير، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾، [لقمان:21]، والآيات بمثل ذلك كثيرة. ينظر: الشـنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار، أضـواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، 7/ 100.

(2) ينظر: الشوكاني، فتح القدير، 2/ 528.

الفكري، والباحث هنا بصدد ذكر أهم ما وردَ من هذه المعالجات، وهي:

- حثَّ القرآن الكريم على استعمال العقل، والاستنارة به، فقد تكرر ذكره في نصوص القرآن بمقام التعظيم، والتنبيه إلى وجوب العمل به، وبموازاة ذلك حذَّر من تعطيل العقل الذي هو أساس بناء الفكر السليم؛ لأن تعطيله سببٌ رئيسي ومدخلٌ من مداخل التعصُّب، فأنكر الله تعالى على الذين يعطلون عقولهم، وذمهم في عددٍ من الآيات، وبالغ في ذمهم حتى شبههم بالأنعام، بل هم أضل منها، قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان:44]؛ لأنهم لشدة عنادهم وتعصُّبهم لا يصغون إلى الكلام، وإذا سمعوه لا يتفكرون فيه، فكأنه ليس لهم عقل ولا سمع البتة؛ فعند ذلك شبههم بالأنعام في عدم انتفاعهم بالكلام، وعدم إقدامهم على التدبُّر والتفكر، وإقبالهم على اللذات الحاضرة الحسية، وإعراضهم عن طلب السعادات الباقية العقلية [1]، وقال تعالى في بيان عاقبة من أبطلوا إعمال عقولهم: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك:10]، أي إننا نلوم أنفسنا ونندم على ما فعلنا، فلو كنا نسمع ما أنزل الله من الحق سماعَ مَن يعي، وسماعَ هداية، أو نعقل عقل مَن يميز وينظر وينتفع، وعقل هداية، ما كنا من أهل النار، وما كنا عليه من الكفر بالله والضلال، ولكن لم يكن لنا فهم نعي به ما جاءت به الرسل، ولا كان لنا عقل يرشدنا إلى اتباعهم، والإيمان بما أنزل الله تعالى، والاستماع إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – فكان جزاؤنا أن كنا من أصحاب السعير [2].
- كما رغَّبت نصوص القرآن الكريم في طلب العلم، فكلما ازداد الإنسان علمًا كلما قلَّ تعصُّبه، وقد تكرر ذكر لفظ العلم ومشتقاته في القرآن، بصيغٍ مختلفة وسياقاتٍ متعددة، وكانت أول الآيات التي أنزلها الله على قلب نبيه – صلى الله عليه وسلم – تحضُّ على العلم والتعلم، قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق:1]، والناظر إلى حال

(1) ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، (24/ 463).

(2) ينظر: الزحيلي، وهبة بن مصطفى، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، 29/ 17.

سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – يجد كيف مَنَّ الله عليه بالعلم مرة بعد أخرى، قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾ [الضُّحى:7-8]، فقدم الامتنان بالعلم على الامتنان بالمال، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:52]، وقال أيضًا: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود:49]، وأمره بطلبه فقال له: ﴿... وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:114]، وأما قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [الزُّمَر:9]، فهو تنبيه عظيم على فضيلة العلم، وقبح الجهل، وقد حذرنا الله تعالى أن نكون من الجاهلين، فقال سبحانه: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاء فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام:35].

- حذَّر القرآن أيضًا من اتباع الهوى؛ لأنه لا يقود صاحبه إلا إلى التعصُّب، فقال في ذمِّه والتحذير منه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية:18]، أي: لا تتبع مالا حجة عليه من أهواء الجهال ودينهم، المبني على هوى وبدعة [1]، والمقصود بهم هنا رؤساء قريش، فإنهم كانوا يعبدون من الأصنام ما يهوون، يستبدلون صنمًا بصنَم، وكانوا يجرون على مقتضى ما يقع لهم، والمؤمن بحكم الله لا بحكم نفسه، وبهذا يتضح الفرق بين المؤمن الذي يجعل هواه تبعًا لأمر الله ورسوله، وبين الكافر، فالذي يعيش على ما يقع له، عابدٌ هواه، وهو الذي عناه الله بقوله: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ [الفرقان:43]، أي: لم يتخذ لنفسه إلهًا إلا هواه، قال ابن عباس: الهوى إلهٌ يُعبد، والمعنى: أنه سبحانه وتعالى بيَّن أنَّ بلوغ هؤلاء في جهالتهم وإعراضهم عن الدلائل؛ إنما كان لاستيلاء التقليد عليهم وأنهم اتخذوا

(1) ينظر: النسفي، عبد الله بن أحمد، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 3/ 302.

أهواءهم آلهة، فكل ما دعاهم الهوى إليه انقادوا له، سواء منع الدليل منه أو لم يمنع [1]، ولهذا نفى نبينا – عليه الصلاة والسلام – وجود الإيمان في قلب امرءٍ يحتكم إلى هواه، فعن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئتُ به» [2].

- نهى الله سبحانه وتعالى في عددٍ من نصوص القرآن الكريم عن النزاع المؤدي إلى الخصام، والذي ينتج عنه الفشل والوهن والضعف، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال:46]، فأخبر الله تعالى أنَّ التعصُّب للأفكار والتنازع في الآراء سببٌ للفرقة والخصومة والفشل، وأنَّ طاعته وطاعة رسوله – صلى الله عليه وسلم – وائتلاف قلوب المؤمنين، وثباتهم على دينهم، وعدم تنازعهم، سببٌ للنصر على الأعداء، ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ ...﴾ [آل عمران:152]، أي: تركتم امتثال أمر الله ورسوله – وهو الائتلاف وعدم الاختلاف – فاختلفتم وتنازعتم وفشلتم، وعصيتم نبيكم – عليه الصلاة والسلام – وتركتم أمره من بعد ما أراكم ما تحبون – وهو خسران أعدائكم – فحصلَ ما حصلَ من تَفرُّق صفكم وقتل بعضكم، وقيل معناها: حتى إذا تنازعتم في الأمر، فشلتم وعصيتم، من بعد ما أراكم ما تحبون، على أنه من المقدَّم الذي معناه التأخير [3]، ويرى الباحث أنَّ هذا المعنى هو الأقرب للمراد، فالتنازع هو سببُ كلِّ رزية وشؤمٍ حلَّ بالأمة، وقد أرشدنا القرآن إلى رَدِّ كل ما تنازع الناس فيه إلى الله ورسوله – عليه الصلاة والسلام – أي إلى الأصول والقواعد المستنبطة من الكتاب والسنة، واعتبر ذلك التحاكم من

(1) ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 24/ 462.

(2) الشيباني، أبو بكر بن أبي عاصم، السُّنة، 1/ 12، باب: ما يجب أن يكون هوى المرء تبعًا لما جاء به النبي.

(3) ينظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، 7/ 292.

شـــرط الإيمان بالله تعالى، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُـــولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَـــيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُـــولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلا﴾ [النساء:59].

- حذَّرت نصـوص القرآن الكريم أيضًـا من الغلو؛ لأنه يُعدُّ انحرافًا عن الصـراط المسـتقيم، وطغيانًا وخروجًا عن حد الاعتدال؛ لذا جاء ذمه في أكثر من موضـــعٍ في كتاب ربنا، وبأكثر من لفظ، فتارة يذمه مصـــرحًا بلفظه، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَـلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَـلُّواْ كَثِيرًا وَضَـلُّواْ عَن سَـــوَاء السَّـــبِيلِ﴾ [المائدة:77]، وتارة يعبر عنه بلفظ الطغيان، كما في قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلاَ تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾ [طه:81]، وأحيانًا يعبر عنه بلفظ البغي، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُون﴾ [النحل:90]، والمعنى الذي تلتقي عليه كل النصوص السابقة وغيرها: أن الغلو مجاوزة لما شـرع الله بالزيادة والمبالغة فيه، وهو يشـتمل على مخاطر كثيرة تجعله مذمومًا في شريعتنا الإسلامية، وإن من أهم أسبابه: ضعف البصيرة بحقيقة الدين، وعدم التعمق في فقهه، وقلة الإحاطة بأســراره ومقاصــده، والتمســك بالمظاهر وجعلها المقياس الوحيد لتدين الفرد من عدمه، وغالبًا ما يكون هذا الجهل شـائعًا بين أنصـاف المتعلمين، فتراه يتعصَّبُ لمرجعياته الخاصـة، ويعتبر كل ما يخالفهم خروجًا ومروقًا، وقد يكون التعصـب للرأي، أو لشـخص معين يراه المتعصـب مصـدرًا للتشـريع، ويضـفي على قوله لونًا من القداسة، وقد ابتلي مجتمعنا بهذا الداء العُضال، فهو جالبٌ للظلمة، عدوٌ للنور.
- وضـــع القرآن الكريم للمســـلمين في التعامل مع مخالفيهم في الدِّين، قانونًا عامًّا التزم به الرسـول – صـلى الله عليه وسـلم – والمسـلمون في جميعِ عصـورهم وديارهم، وهو قوله تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْـدُ مِنَ الْغَيِّ ...﴾ [البقرة:265]، فلم يُجبِر أحدًا على اعتناق الإسلام مكرهًا، بل ترك الناس وما اختاروا لأنفسهم من الدِّين، كما حثَّ

القرآن الكريم على المعاملة الحَسَنة مع المسالِمين من غير المسلمين، وأحل طعام أهل الكتاب ومصاهرتهم، ودعا إلى مجادلتهم بالتي هي أحسن، فقال تعالى: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ ، وقال أيضًا: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ...﴾ [المائدة:5]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ...﴾ [العنكبوت:46]، فالسبيل الذي خطَّه القرآن الكريم في معاملة غير المسلمين، هو السبيل الذي يجتمع مع أخلاق الصدق والعدل والإحسان التي فطر اللهُ عليها الناس.

- أرشدنا القرآن الكريم أيضًا إلى أنَّ الاختلاف حقيقة وواقع، ودعانا إلى التعامل مع هذه الحقيقة من خلال الحوار، واعتبر الإسلام الحوار قاعدته الأساسية في دعوته الناس إلى الإيمان بالله وعبادته، وكذا في كل قضايا الخلاف بينه وبين أعدائه، وقد أكَّد القرآن هذا المبدأ بطرق عديدة، فعرضَ حوار الله مع خلقه بواسطة الرسل، وكذا مع الملائكة ومع إبليس، رغم أنه يمتلك القوة ويكفيه أن يكون له الأمر وعليهم الطاعة، كما أنَّ دعوات الرسل كلها كانت محكومة بالحوار مع أقوامهم، وقد أطال القرآن في عرض كثير من هذه الحوارات بين الرسل وأقوامهم، ووصف القرآن حالة المشركين النفسية تجاه الرسول – صلى الله عليه وسلم – حيث كان موقفهم انفعاليًا، فجعلوا يردون بالتُّهم والتعجب؛ ليريحوا أنفسهم من عناء التفكير، قال تعالى عنهم: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص:4]، فأمر الله تعالى نبيَّه – عليه الصلاة والسلام – أن يطلب منهم بكل هدوءٍ إبداء الدليل على ما هم عليه من شرك، قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَـذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأحقاف:4]، وإذا عرفنا هدي القرآن في هذا، تبين لنا أسباب التردي والفشل في

مختلف الحوارات التي تجري في واقعنا المعاصر، سواءً بين المسلمين أنفسهم، أو بين المسلمين وغيرهم، فهي حوارات يغلب عليها التعصُّب، ومنطق الوصاية وإثبات الوجود؛ لذا فهي أبعد ما تكون عن القصد إلى الحق.

الخاتمة

بعد توفيق الله تعالى تم الانتهاء من هذا البحث، وفيما يأتي خاتمة مشتملة على أهم النتائج والتوصيات التي توصَّل إليها الباحث، ورآها هامة، وهي:

أهم النتائج:

- التعصُّب الفكري له أسباب ومظاهر متعددة، ينبغي الوقوف عليها؛ لمعرفة مكمن الخلل ولتبدأ مسيرة الإصلاح الفكري.
- نجد أنَّ نصوص القرآن الكريم تظافرت جميعها للتحذير من هذه الظاهرة، وبيان مدى خطورتها على الأفراد والمجتمعات والدول.
- إنَّ المتعصِّب لرأيٍ يمكنه أن يمارس عددًا من التصرفات المخالفة لهدي القرآن الكريم والسنة النبوية من نقص العهود، أو الغدر، أو استحلال الدماء والأموال والأعراض.
- إنَّ تعصُّب المجتهد لرأيه، أو المقلد لرأي شيخه، يرتكبُ جُرمًا كبيرًا، وذلك من خلال تقديسه لهذا النص المبني على غلبة الظن في مسائل الاجتهاد.
- من أهم أسباب الوقاية من مشكلة التعصُّب الفكري، التزود من العلم والمعرفة، والانفتاح على كافة الآراء المعتبرة في الاجتهاد، فكلما زاد علم الإنسان قلَّ إنكاره على مخالفيه.
- وجَّه القرآن الكريم الأمة الإسلامية إلى عددٍ من المعالجات لهذه المشكلة، لو اعتنى بأخذها المسلمون، والتزموا بما فيها من الإرشاد، لعاشوا حياة سعيدة.

أهم التوصيات:

- الاعتناء بقراءة القرآن الكريم وتدبر معانيه، ففيه سعادة المسلمين في دنياهم وآخرتهم.
- العمل على نشر الثقافة الإسلامية الصحيحة، على منهج الوسطية الشرعية والاعتدال الواعي، بعيدًا عن الغلو والتعصُّب المذموم.

- قيام المسجد والجامعة والمدرسة والأسرة بدورهم تجاه الشباب، والحرص على زيادة نسبة الوعي والمعرفة لديهم، من خلال الاعتناء بتنوع وسائل التثقيف.

هذه هي أهم النتائج والتوصيات التي أسفر عنها البحث، سائلاً من الله تعالى أن أكون قد وفقت فيه، وأن يكون هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

قائمة المراجع

أمير بادشاه، محمد أمين، (1932)، *تيسير التحرير*، مصر: مصطفى البابي الْحَلَبِي.

البخاري، محمد بن إسماعيل، (1422هـ)، *الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وسننه وأيامه*، ط1، تحقيق: محمد زهير، دار طوق النجاة.

بدوي، أحمد زكي، (1399هـ)، *معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية*، بيروت: مكتبة لبنان.

البغوي، الحسين بن مسعود، (1420)، *معالم التنزيل في تفسير القرآن*، ط1، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

بن جرير الطبري، محمد، (1420)، *جامع البيان في تأويل القرآن*، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة.

جمال الدين الإسنوي، عبد الرحيم بن الحسن، (1999)، *نهاية السول شرح منهاج الوصول*، ط1، لبنان: دار الكتب العلمية – بيروت.

أبو الحسن الأشعري، علي بن إسماعيل، (2005)، *مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين*، ط1، تحقيق: نعيم زرزور، المكتبة العصرية.

الحلاق، محمد بن محمد، (1418هـ)، *محاسن التأويل*، ط1، تحقيق: محمد باسل، بيروت: دار الكتب العلمية.

الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي، (1421هـ)، *الفقيه والمتفقه*، ط2، تحقيق: عادل

بن يوسف الغرازي، السعودية: دار ابن الجوزي..

الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، (1412هـ)، *المفردات في غريب القرآن*، ط1، تحقيق: صفوان الداودي، بيروت: الدار الشامية.

الزحيلي، وهبة بن مصطفى، (1418هـ)، *التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج*، ط2، دمشق: دار الفكر المعاصر.

الزركشي، محمد بن عبد الله، (1994)، *البحر المحيط في أصول الفقه*، ط1، دار الكتبي.

الزمخشري، محمود بن عمرو، (1407هـ)، *الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل*، ط3، بيروت: دار الكتاب العربي.

السبكي، تاج الدين عبد الوهاب، (1413)، *طبقات الشافعية الكبرى*، ط2، تحقيق: محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع.

السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، (2000)، *تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان*، ط1، تحقيق: عبد الرحمن اللويحق، مؤسسة الرسالة.

الشاطبي، إبراهيم بن موسى، (1992)، *الاعتصام*، ط1، تحقيق: سليم بن عيد الهلالي، السعودية: دار ابن عفان.

الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار، (1415هـ)، *أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن*، لبنان: دار الفكر- بيروت.

الشوكاني، محمد بن علي، (1419هـ)، *أدب الطلب ومنتهى الأدب*، ط1، تحقيق: عبد الله السريحي، بيروت: دار ابن حزم.

الصابوني، محمد علي، (1997)، *صفوة التفاسير*، ط1، القاهرة: دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع.

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، (1420)، *الوافي بالوفيات*، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، بيروت: دار إحياء التراث.

ابن أبي عاصم، أبو بكر والشيباني، أحمد بن عمرو، (1400هـ)، *السُّنة*، ط1، تحقيق: محمد

ناصر الدين الألباني، بيروت: المكتب الإسلامي.

عبد الحكيم، طارق والعبده، محمد، (1986)، *مقدمة في أسباب اختلاف المسلمين وتفرقهم*، ط2، الكويت: دار الأرقم.

عبد الحميد، أحمد مختار، (2008)، *معجم اللغة العربية المعاصرة*، ط1، عالم الكتب.

العجلوني، إسماعيل بن محمد، (2000)، *كشف الخفاء ومزيل الإلباس*، ط1، تحقيق: عبد الحميد بن هنداوي، المكتبة العصرية.

فخر الدين الرازي، محمد بن عمر، (1420هـ)، *مفاتيح الغيب = التفسير الكبير*، ط3، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

القرطبي، محمد بن أحمد، (1964)، *الجامع لأحكام القرآن*، ط2، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، القاهرة: دار الكتب المصرية.

قنيبي، حامد وقلعجي، محمد، (1408هـ)، *معجم لغة الفقهاء*، ط2، دار النفائس.

ابن كثير، إسماعيل بن عمر، (1999)، *تفسير القرآن العظيم*، ط2، تحقيق: سامي سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع.

كحالة، عمر رضا، *معجم المؤلفين*، بيروت: مكتبة المثنى، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

اللخمي، سليمان بن أحمد والطبراني، أبو القاسم، *المعجم الكبير*، ط2، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد، القاهرة: مكتبة ابن تيمية.

مالك، مالك بن أنس، (1412هـ)، *موطأ الإمام مالك*، تحقيق: بشار عواد ومحمود خليل، مؤسسة الرسالة.

مرتضى الزَّبيدي، محمد بن محمد، *تاج العروس من جواهر القاموس*، دار الهداية.

مسلم، مسلم بن الحجاج، *المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله*، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

المناوي، عبد الرؤوف بن تاج العارفين، (1356هـ)، *فيض القدير شرح الجامع الصغير*، ط1، مصر: المكتبة التجارية الكبرى.

ابن منظور، محمد بن مكرم، (1414هـ)، *لسان العرب*، ط3، بيروت: دار صادر.

النســـفي، عبد الله بن أحمد، (1419هـ)، *مدارك التنزيل وحقائق التأويل*، ط1، تحقيق: يوسف بديوي، بيروت: دار الكلم الطيب.

النعماني، ســـراج الدين عمر بن علي، (1419هـ)، *اللباب في علوم الكتاب*، ط1، تحقيق: عادل عبد الموجود وعلي معوض، لبنان: دار الكتب العلمية – بيروت.

الواحدي، علي بن أحمد، *الوسيط في تفسير القرآن المجيد*، ط1، تحقيق: عادل عبد الموجود، علي معوض، وآخرون، لبنان: دار الكتب العلمية، بيروت.